الدرس النقدي ودوره في تعليمية النحو

د. زرارقة الوكال

مفهوم النقد والنحو

إن كلمة نقد تعني في مفهومها الدقيق (الحكم) وهومفهوم نلحظه قي كل استعمالات الكلمة حتى في أشدها عموما. فالناقد الأدبي يعتبر مبدئيا كخبير يستعمل قدرة خاصة ومرانة خاصة في قطعة من الفن الأدبي هي عمل لمؤلف ما فيفحص مزاياها وعيوبها ويصدر عليها حكما. فقد (قام النقد على وظيفة تشبه الوظيفة القضائية لدى القاضي بحيث لا مناص لصاحبه من إصدار الأحكام ومحاولة التدقيق في الأوصاف لدى إصدار هذه الأحكام التي أهم ما كانت تقوم عليه لدى قراءة الإبداع هل هوجيد أورديء)(١)

ويرى "رينيه ويلك" أن كلمة النقد إذا استخدمت للحكم على الأدب فإنها تعني كذلك تفسير النصوص .

وتلتقي جملة المعاني اللغوية المختلفة لكلمة النقد عند معاني النظر والفحص والتمييز، أما عن مفهوم النقد الذي يدور حول تحليل الأعمال الأدبية وتفسيرها وتقويمها فهومحل خلاف بين الاتجاهات والمدارس النقدية. ومن ثمة فإن المتتبع للدراسات التي اهتمت بتحديد مصطلح النقد وماهيته يصل إلى أنَّ النقد هوفحص ونظر وتفسير وتحليل وتمييز وحكم وتقويم للعمل الإبداعي. وتظل غاية النقد هي (اهتداء السبيل إلى حقيقة النص، بتعبير فلسفي، أوإلى فهمه بتعبير التأويلية الغادميرية، أوإلى تفسيره بمصطلح علماء التفسير، أوإلى استكشاف علاقة الدال بالمدلول بتعبير اللسانيين البنويين، أوإلى الكشف عن نظام الإشارة فيه بتعبير السيميائيين، أوإلى تقويضه، أوتفكيكه بمصطلح الدرديين (نسبة إلى دريدا) فالغاية من النقد كما ترى، تختلف باختلاف الاتجاهات الفنية، والتيارات الفكرية.)(٢)

وميدان النقد الأدبي النص الإبداعي الذي يقوم على عناصر الفكرة والعاطفة والخيال ونظم الكلام أوما يعرف بالأسلوب، فالنص الإبداعي (وسيلة من وسائل التبليغ قائم على وسائل جمالية لحمتها الخيال والإبداع.)(٣) ويرى أحد الدارسين أن أصول النقد تقوم على المآخذ اللغوية والبلاغية والنفسية والمعنوية والأسلوبية. وإذن فالعملية النقدية للنص الإبداعي شاملة لجميع مناحيه المحصورة في اللغة والمعنى والأسلوب والموسيقى.

ومن المفاتيح الهامة لاستكشاف النص الإبداعي التي يعتمدها النقد مفتاح اللغة، فلغة النص الإبداعي لم تأت عفوية، وإنما هي وليدة مخاض أوجدها المبدع للتواصل مع الآخرين (والتعبير عن واقع بأدوات فنية تتلاءم مع موهبته وتجربته واستعداده الباطن، غايته وصف الواقع الناشئ في النفس الباطنة المتسرب إليها عن طريق العالم الخارجي المتولج في نفسه الإبداعية)(٤).

ومن أهم ملامح هذه اللغة النحوالذي له دور فعال في فهم النص وكشفه، وقد قصدنا بتوطئتنا السابقة حول مفهوم النقد والأصول التي يقوم عليها، التنبيه إلى أن العملية النقدية التفسيرية والتحليلية والتمييزية لا يمكن لها الوصول إلى الحكم على العمل الفني الإبداعي واستكشاف أغواره ومكنوناته دون مفتاح الجانب النحوي.فما طبيعة العلاقة التي تربط النحوبالنقد أوالنقد بالنحو؟

لقد ترسخ في اعتقاد المتأخرين من الدارسين في عالمنا العربي بأنَّ النَّحوهوالعلم الذي يبحث في أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء وموضوعه الكلام العربي وما يعرض له من الإعراب والبناء (فالنحوومنه الصرف يرشدنا إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها وبيان علاقاتها معا في الجمل والعبارات ثم يعيننا كذلك في التراكيب الصحيحة والفقر المترابطة الأجزاء، وبذلك تنتهي مهمته ما دام قد حقق لنا صحة العبارة في ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء والسامعين) (٥) . وانطلاقا من هذا المفهوم والتصور حصروا غاية النحوفي معرفة الصواب

والخطأ في ضبط أواخر الكلم والتمييز بين صحيحه من فاسده.

وقد يرجع سبب هذا التصور الضيق لوظيفة النحووغايته إلى تخلي أبناء العربية لظروف تاريخية وسياسية عن استعمال الفصحى في كلامهم أوتداولها في حياتهم واصطناع العاميات بديلا عنها،وألفت هذه الغاية منه حتى أصبحت الغاية الوحيدة والواضحة، وصار يُنكر على النحوأن يتطاول إلى غاية سواها. وقد يرجع كذلك إلى الخطأ واللحن في ظاهرة الإعراب في الكلام في فترة من الفترات التي مرت بها الأمة.

أما بعض علماء العربية من القدماء فقد أطلقوا مصطلح النحوعلى ما يرادف علم العربية، وكان لهم تصور لغاية النحووظيفته أوسع من تصور المتأخرين، وخير نموذج يمثل ذلك كتاب سيبويه الذي يعد أول أثر نحوي يعكس الفهم الناضج الصحيح فقد عني بتمييز التراكيب وكشف خصائصها وتواؤمها مع ملابساتها يقول الشاطبي في كتابه الموافقات عن هذا الكتاب : (وإن تكلم في نحوالنحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحوذلك، بل هوبين في كل باب ما يليق به حتى انه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني...)(٦) .

وتراوح فهم النحوبعد سيبويه بين الاقتفاء الصحيح والانحراف عن مقصده وغايته، فاهتم بعض القدماء بالجانب التقني منه، واهتم المتأخرون بغاية النحوالتعليمية التي تعنى بالصواب والخطأ.

ومن علماء العربية الذين كان لهم تصور راشد لحقيقة النحووأهميته في كشف النص الإبداعي عبد القاهر الجرجاني الذي عرف بعلمه بالنحووفهمه للنصوص وفقهه بالأساليب وولوعه بتفسيرها وقد هداه ذلك إلى نظريته المعروفة بنظرية النظم وهي تقوم على معاني النحو.

ومن علماء العربية غير النحاة الذين فقهوا غاية النحووهدوا إلى وظيفته وهم من الذين اعتنوا بالنصوص وشرحها وتفسيرها، ابن حزم الظاهري الذي يرى بأن النحوهو(ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل به القرآن،وبه يفهم معاني الكلمات التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ)(٧)،ومنهم كذلك ابوحامد الغزالي الذي يرى أن النحو(يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال إلى حد يميز بين صريح الكلام ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه،ومحكمه ومتشابهه،ومطلقه ومقيده،ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه)(٨)،وأمَّا علي بن محمد الآمدي فيقول عن غاية النحوومدى الحاجة إليه (وأما علم العربية فلتوقف دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة من جهة الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد،والحذف والإضمار، والمنطوق والمفهوم، والاقتضاء والإشارة، والتنبيه والإيماء، وغيره مما لا يعرف في غير علم العربية.)(٩)

علاقة النقد بالنحو

وفي العصر الحديث عرفت غاية النحوفي استكشاف العمل الأدبي تطورا متميزا منظرا بقواعد وأسس محكمة وقابلة للتطبيق، فقد اهتدى المهتمون بدراسة النصوص الإبداعية إلى الدور الكبير الذي يقوم به العامل النحوي في إضاءة النص وتفسيره،ورأوا بأن النحولا يحصر عند المشتغلين بالمثل اللغوية أي في إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أولا يرون الصواب ر أيا واحدا . ورأوا بأنَّ النحويدخل في إطار العملية الإبداعية مثله مثل بقية عناصر الإبداع الأخر (فالنحومشغلة الفنانين والشعراء . والفنانون هم الذين يفهمون النحو، أوهم الذين يُبْدِعون النحو، فالنحو إبداع)(١٠) فالمبدع شاعرا كان أم ناثرا يستخدم القواعد النحوية للوصول إلى تفعيل عمله الإبداعي وجعله أكثر تأثيرا وتوضيحا لما يريد الوصول إليه. إلى جانب فقه الكثير لوظيفة النحووممهمته التي تتجاوز تصحيح التراكيب والعبارات بل تتعداها إلى المعاني الجزئية(فيظهر أثره الواضح في حسن التأليف وسلاسة العبارة والحرص على دقة المعنى ووضوحه، فالنحولا يقف عند حركات الإعراب بل يشمل موسيقى العبارات ومنطق المعاني.)(١١)

فالنقد في تعامله مع النص الأدبي والوصول إلى استكشافه ومعرفة مكنوناته وأسراره يتخذ من معرفة خصائص البنية المفردة المستعملة فيه أحد مفاتيحه للولوج في أعماقه فيبحث ف الأسماء والأفعال ويصنف الأسماء (النكرة والمعرفة، والمشتقة والجامدة) ويتعرف على الأفعال ومدى اكتساحها للنص أوعكسه، وما طبيعة

الأفعال المسيطرة ومبرران ذلك (فبدراسة الأفعال وتشريحها يتبين لنا كيف وظف الأديب الزمان وتعامل معه في نصه ؟ أما بدراسة الأسماء والصفات فسيتبين لنا كيف وظف الأديب الحيز على امتداداته المختلفة فإذا هوأفقي أوعمودي أومنظوري أوجانبي أوغير ذلك من الأحوال التي يصعب حصرها بسهولة .)(١١)فالنقد عند دراسته للأفعال المستعملة في النص عليه أن يحدد زمانها الموزع بين الماضي والحاضر والمستقبل (فحين نذكر الماضي يجب أن ننتبه إلى أنَّه قد يكون ماضيا يضطلع بوظيفة زمانية أساسة، وماضيا آخر لا تتم وظيفته الزمانية إلاَّ بذكر قرائن لفظية تكمله وتوضحه، ونحوذلك يقال في المضارع الذي قد يكون مضارعا صورة ودلالة (وهي أبسط صورة) ومضارعا صورة لا دلالة، ومضارعا دلالة لا صورة) (١٢)، ويتمكن النقد من خلال ذلك إلى التعرف على البنى الإفرادية وخصائصها الألسنية، وتكتمل صورة العناصر الأساسية التي يتشكل منها النص في مادته، وتبين دلالاته المعنوية، فيتكشف من المعنى ما كان محجوبا، ويتجلى ما كان غامضا.

ومن النتائج التي يستكشفها النقد من خلال مفتاح النحوالمعنى الثابت الجامد والمعنى المتسم بالحركة والفعل، والدلالات من التقديم والتأخير في الجملة وتأثيرها في الكلام، وكشف دلالات الأبنية وتمايزها عن بعضها البعض وما تنفرد به كل بنية من حيث دلالتها، فبنية المصدر غير بنية الاسم، وغير بنية الفعل، وصيغ المبالغة، وأسماء الفاعلين والمفعولين وغيرها.

فالنقد من خلال النحويسعى إلى معرفة المعنى الذي صيغت به الجملة في صيغتها النحوية،فقد يكون المعنى محددا أومحتملا عدة فرضيات كالإيحاء أوالرمز، فتفهم أوتفسر الطبقة الأولى من المعنى وتليها الطبقات الأخرى. فدراسة النقد وتحليله للجملة ينطلق من أهمتها في النظام النصي لأن (الجملة هي الغاية الأولى لكل نظام نحوي، إذ يعمل على كشف تركيبها، ويحاول أن يربط بين الصورة الصوتية المنطوقة لها والمعنى المراد منها من خلال النظام العقلي الذي يعكسها.) (١٣)

فهذه بعض الأمثلة التي سردناها لتوضيح ما للجانب النحوي من أهمية في استكشاف معالم النص والتعرف على دلالاته البعيدة والقريبة،وتوضيحه وتفسيره واستخراج طاقاته.

فغاية النحوالتي اهتدى إليها بعض المتأخرين من خلال دراساتهم النقدية المبنية على أسس علمية وإن اختلفت في رؤيتها للنص الأدبي وقراءتها له ما هي إلا خطوة راشدة وناضجة في إخراج غاية النحومن دائرة تحديد الصواب والخطأ في الكلام إلى دائرة أوسع أفقا، وأكثر عمقا في التعامل مع النصوص الأدبية واستكشاف أغوارها، وهي في حقيقة أمرها رجوعا إلى الفطرة والنظر الصحيح. ومن هذه الأهمية التي تربط النقد بالنحو، والنحوبالنقد فلماذا لا نستغل ذلك في تعليمية النحو؟، وتقديمه بطريقة جديدة لمتعلمينا تجعلهم أكثَرَ تلق له، وأكثَرَ حماسة في اكتشافه واكتسابه والتعلق به، عوض الطريقة التقليدية الجدارية التي يتم بها تلقينه للمتعلمين والقائمة على التمثيل والشرح والتقعيد، والتي تجعل منه علما جافا غير مستاغ، وغير مفهوم، وينتج عنه الصدُّ والنفور. أمَّا الطريقة الجديدة التي تتم فيها تعليمية النحوعن طريق التحليل النقدي للنص فإنَّها تخرج النحومن دائرة التجريد والتقعيد والغموض، إلى فضاء وأفق أوسع تتداخل فيه مجالات متعددة، وعناصر تحليلية متنوعة، منها ما يمس المجال الفكري والوجداني وما يمس المجال البلاغي والبياني وما يمس المجال الإيقاعي، وهذه المجالات المتعددة في تحليل النص تصبُّ كلُّها في قراءة النص واستقرائه ممَّا يجعل من المجال النحوي مجالا مندمجا مع مجالات تحليلية أخرى لا مجالا منفردا ومنعزلا، فينتج عن ذلك رغبة المتعلم في الاندماج في فهم النص وفهم العناصر المكونة له، والبحث عن دلالاتها القريبة والبعيدة.

ونرى بأنَّ المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة تستجيب بشكل كبير وواسع لعملية تعليمية النحوبالاستناد على التحليل النقدي، ومن هذه المناهج المنهج البنيوي الذي يرى في النص (بنية متلاحمة العناصر، بنية كبيرة تحتوي على بنى متفاوتة من حيث الطول، فهناك وحدات صغرى كالبنية الصوتية والصرفية، وهناك وحدات أكبر كالبنية التركيبية ووحدات كبرى مثل البنية السردية أوالوصفية أوالحوارية.)(١٤)

ففي تناولنا لتحليل نص وفق المنهج البنيوي مثلا نستغل الجانب التحليلي الخاص بالبنى الصرفية والبنى التركيبية للتركيز على معارف نحوية وصرفية في إطار تذوق النص والاهتمام بالعناصر المكونة له والحقل الدلالي الذي ينتمي إليه، وإبراز العلاقات بينها للوصول إلى دلالته. وهكذا يتم إيصال مادة نحوية وصرفية

للمتعلم عن طريق البحث عن دلالة النص من خلال عناصر بنائه اللغوي.

ويسمح لنا كذلك التحليل الأسلوبي للنص الأدبي تحقيق تعليمية النحولأن الأسلوبية تهتم في تناولها للنص بالخصائص الأسلوبية على المستوى الصوتي والإيقاعي وعلى المستوى الصرفي وعلى المستويين التركيبي والدلالي.

وقد نستغل كذلك تحليل النص تحليلا سيميائيا في إثارة حفيظة المتعلم، وتفعيل تفكيره، وتحفيز رغبته في الكشف عن الدلالة العميقة للنص التي يُعدُّ الجانب النحوي أداة ووسيلة من وسائل الوصول إليها فهويقف على مستويات النص المختلفة الصوتية والتركيبية والدلالية.

يقول الشاعر أبوالعلاء المعري :

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي
نـــــوح بـــاك ولا تـــرنم شاد
صاح هذي قبورنا تملأ الـرح
بَ فأين القبور من عهد عـــاد
خفف الوطء ما أظن أديم ال
أرض إلا مـــن هـذه الأجـساد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مرار
اًضاحكٍ من تزاحـــم الأضداد
تعبٌ كلُّها الحياة فما أع
جب إلا من راغـــبٍ في ازدياد

فإذا أخذنا هذا المقطع من نص شعري لأبي العلاء المعري وحللناه وفق التحليل الأسلوبي فإنَّنا نستهدف مادة نحوية معينة ونركز عليها أثناء التحليل في مستواه التركيبي فنقوم بتوضيح طبيعتها وعملها ثمَّ الوصول إلى دلالتها في النص .ولتكن مثلا الجملة فالنص يشتمل على جمل اسمية وجمل فعلية فنوضح ماهية الجملة وطبيعة الجملة الفعلية والجملة الاسمية، ونحدد بعد ذلك موقعهما في النص،ونسبة وجودهما ودلالة ذلك . فهذا المقطع تغلب عليه الجمل الاسمية الدالة على الثبات للدلالة على ثبات الشاعر على حاله من التذمر والمعاناة، بينما الجمل الفعلية تدل على الحركة. وبذلك نلبس المعارف والمعلومات النحوية أو الصرفية ثوبا جديدا يتداخل فيه ماهوجمالي بما هولغوي نحوي فتكون قابلة للاستساغة والتفهم والتكيف مع المتعلم، ما دامت بعيدة عن طريقة التلقين والتجريد.

ولوأخذنا التحليل السيميائي لهذا المقطع وحاولنا الوصول إلى دلالته العميقة من خلال عتباته التركيبية ووقفنا عند قوله:

تعبٌ كلُّها الحياة فما أع
جب إلا من راغـــبٍ في ازدياد

فإننا وفي إطار البحث عن دلالته العميقة وفي المستوى التركيبي نقف عند التقديم والتأخير وغرضهما النحوي والبلاغي ودلالة ذلك. فنوضح ظاهرة التقديم والتأخير في الجملة لغايات بلاغية ودلالية، ومن ثمّة يتعرف المتعلم على ظاهرة التقديم والتأخير في إطار البحث عن دلالة النص العميقة.

فالشاعر في هذا البيت قدَّم الخبر "تعب"على المبتدأ "الحياة" لتجسيد فلسفته في الحياة ورؤيته لها الناتجة عن تأمل وتجربة . وبهذا نستطيع إلباس تعليمية النحوعن طريق التحليل النقدي لباسا جديدا جذابا يجعل المتعلم من خلال اندماجه في النص ورغبته في استكشافه القابلية لاكتساب الأدوات والوسائل الموصلة لذلك ومنها الأدوات والوسائل اللغوية.

الهوامش :

١. عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، ٢٠٠٢م، الجزائر، ص.٢٥.

٢. م. س، ص. ٥١.

٣. عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين ؟، ١٩٨٣م، الجزائر، ص.١٥.

٤. م. س .

٥. أحمد الشايب، الأسلوب، ٢٠٠٣م،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ص ٢٦.

٦. أبوإسحاق الشاطبي، الموافقات، ج٤، ص ١١٥ ـ ١١٦.نقلا عن محمد حماسة عبد اللطيف، النحووالدلالة، ص.١٧.

٧. ابن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، ج ٢، ص. ٦٩٣.نقلا عن محمد حماسة عبد اللطيف، النحووالدلالة، ص.٢١.

٨. أبوحامد الغزالي، المستصفى، ج٢، ص ٣٥٢. نقلا عن م س. ص.٢١.

٩. علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام،ج١، ص.٩.

١٠. مصطفى ناصف، النحووالشعر، في مجلة فصول، العدد الثالث أفريل ١٩٨١م، ص.٣٦.

١١. أحمد الشايب، الأسلوب، ٢٠٠٣، مكتبة النهضة المصرية، ط١٢، ص ١٨.

١٢ عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين ؟، ص. ٦٥.

١٣. م. س، ص. ٦٦.

١٤. حماسة عبد اللطيف، النحووالدلالة، ١٩٨٣م، مصر، ط١، ص. ١٥.

١٥. فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، ٢٠٠٨م، دار التنوير، الجزائر، ط٢، ص. ٦٧.